غادة السمان أيقونة السرد العربي

وقصتها "إنهم يدعّون الشمس تشرق من إسرائيل"

بقلم: شوقي بدر يوسف
مصر

نشرت هذه القصة في العدد 451 من مجلة الموقف الأدبي السورية في نوفمبر 2008، وقد وصلت بها غادة السمان إلى الذروة في التعبير الفني بالقصة القصيرة عن قضايا مهمة تمس الوجدان العربي في أهم إشكالياته السياسية والثقافية والاجتماعية، وهذه القصة في نظري تعد من أهم القصص التي كتبتها الكاتبة في مسيرتها الإبداعية.

وقصة "يدعّون: الشمس تشرق من إسرائيل!!"، تعد من الأعمال القصصية ذات النزعة السياسية وهو نص يضاف إلى محور إبداع المقاومة مع العدو الصهيوني في كتابات المرأة، قدمت به غادة السمان رؤية أدانت فيه الأعلام العربي ووضعته أمام مسئولياته التاريخية والقومية تجاه تعريف العالم بقضايا العرب الملحة من خلال أدبها السردي بكل مقوماته.

وقد حظي أدب غادة السمان بعدد كبير من الدراسات النقدية والكتب البحثية والرسائل الأكاديمية، حقق فيه الكتّاب والنقاد والباحثين دور هذه الكاتبة في مجال السرد الحديث. من خلال إبداعها خاصة في مجالات الرواية والقصة القصيرة والسيرة الذاتية، مما يعطى انطباعًا مهمًا عن أهمية إبداع الكاتبة على المستوى العربي والعالمي، فقد صدر عن أدبها العديد من الكتب والدراسات منها "غادة السمان الحرب والحرية .. دراسة في علم الاجتماع الأدبي" الدكتورة إلهام غالي وهي أطروحة دكتوراه كتبت أصلاً بالفرنسية، وقدمت إلى جامعة باريس عام 1984، كما صدر عنها كتاب "غادة السمان بلا أجنحة" الدكتور غالي شكري، وكما جاء في تذييل هذا الكتاب فإنه يعد رؤيا مستقلة لعالم الكاتبة، صدر أيضًا كتاب "الفن الروائي عند غادة السمان" عبد العزيز شبيل، وفى هذا الكتاب يعرض الباحث التونسي عن القضايا المطروحة في روايات غادة السمان، ثم صدر كتاب "قضايا عربية في أدب غادة السمان.. في المدة ما بين 1962–1975" للباحثة حنان عواد، وهو عبارة عن أطروحة دكتوراه قدمت باللغة الإنجليزية بإشراف الدكتور عيسى بلاطة، وصدر عنها كتاب "غادة السمان المهنة كاتبة متمردة" للكاتبة السورية سمر يزبك، وهو يتعرض لغادة السمان كإشكالية إبداعية متطرفة في رؤيتها الإبداعية، وكتاب "فض ذاكرة امرأة.. دراسة في أدب غادة السمان" الدكتور شاكر النابلسي، وكتاب "تحرير المرأة عبر سيمون دي بوفوار وغادة السمان" للباحثة نجلاء نسيب، وكتاب "الجنس في أدب غادة السمان" لوفيق عزيزي، وفيها يعرض الباحث لإشكالية الجنس في أدب غادة السمان، كما صدر كتاب "غادة السمان رحلة في أعمالها غير الكاملة" عبد اللطيف الأرناؤوط"، وكتاب "التمرد والالتزام في أدب غادة السمان" للناقدة بولا دي كابو ترجمة نور السمان وينكل، وكتاب "جماليات المغامرة الروائية لدى غادة السمان" للدكتورة ماجدة حمود. لقد كان لصدور هذا الطرح النقدي الكبير عن عالم هذه الكاتبة ليوضح مدى أهمية هذا العالم الإبداعي بالنسبة للكاتبة النسوية العربية على إطلاقها.

وتمثل غادة السمان مع كوليت خورى وليلى بعلبكي مثلثًا متساوي الأضلاع في الأدب النسائي – الشامي – السوري واللبناني كل ضلع من هذا المثلث يمثل حالة من حالات الإبداع النسوي المتميز والمؤثر في كتابات المرأة وكتابات عدد من المبدعين الذين ساروا على نهج هذا الثالوث، إلا أن غادة السمان بمحبرتها الذاتية وقلمها المتميز وإبداعها المتوازن بين المتخيل الذاتي والواقع المتحلق حول الشأن العربي بقضاياه المختلفة الاجتماعية والثقافية والسياسية حفرت لنفسها أخدودًا خاصًا متميزًا في الأدب العربي الحديث، كتبت في جميع المجالات الرواية والشعر والقصة والمقالة والخاطرة والسيرة الذاتية وأدب الرحلات.

ولدت غادة السمان في دمشق وكانت طفلة صغيرة عندما اشتعلت الحرب الأولى في فلسطين عام 1948، ولما اشتعلت حرب السويس عام 1956 لم تكن قد تجاوزت بعد سن المراهقة، ثم توالت الحروب في حياتها وحياة جيلها: 1967، 1973، 1975 حروب من كل نوع. وطنية وأهلية وطائفية، فكان من الطبيعي أن تصبح الحرب محورًا رئيسيًّا في حياتها وأدبها، كانت غادة السمان مفاجأة شديدة الرهافة لجيلها من الكتّاب والكاتبات، حيث قدمت نموذجًا جديدًا من الإبداعي المعبّر عن الحياة العربية المحافظة وجديدها الإبداعي في الفكر المنظم، اتجهت غادة السمان في بداية عهدها بالعلم إلى الطب، ومن ثم هجرته إلى الأدب وكان نتيجة لهذا التحوّل أنها وهبت نفسها للتعبير بالقلم وفي الوقت نفسه التعبير عن الألم، وقد اختارت غادة السمان القصة للتعبير عن الواقع والخوف من المجهول وكانت قصتها "الأصابع المتمردة" هي البداية التي فتحت لها الأبواب في الصحف والدوريات ولفتت أنظار دور النشر إليها، وهى عندما قررت أن تهجر الطب إلى الأدب قالت: "قررت أن أبدأ من جديد.. أن أبعث الجمر الضائع في زوبعة عمر يتألف من واحد وعشرين خريفًا، وهنا أصبحت الكتابة جزءًا من وجودي والشيء الوحيد الذى يساعدني على حمل أشعة الشمس فوق كاهلي طوال النهار، وحمل أكداس الظلام فوق صدري في الليل.. أدمنتها ووجدت فيها لغتي التي امتدت بها في عروق الزمان، وأنسل في نسخ الحياة". (صفحات من حياتهم، محمد نصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د . ت ص 172) من هنا كان إبداعها مغايرًا ومختلفًا لما كانت عليه القيم الأدبية السائدة في ذلك الوقت، بدأت حياتها العملية كأستاذة محاضرة في جامعة دمشق، لكنها سرعان ما تمردت على المجتمع البرجوازي السوري، فتركت الجامعة والأسرة ورحلت إلى أوروبا في جولات مع التجارب الإنسانية والعملية، ولكنها ما لبثت أن عادت لتستقر في لبنان وتعمل في مجال الصحافة والكتابة حتى وقتنا هذا.

كتبت غادة السمان القصة القصيرة طيلة أربعة عشر عامًا حتى عام 1974 حين بدأت في كتابة روايتها الأولى "بيروت 75"، ثم أتبعتها برواية "كوابيس بيروت"، تتالت بعدها إبداعاتها المختلفة في كافة الأجناس الأدبية، وفى مجال القصة القصيرة صدرت لها مجموعات "عيناك قدري" 1962، "لا بحر في بيروت" 1963، "ليل الغرباء" 1966، "رحيل المرافئ القديمة" 1973، ثم صدرت لها مجموعة مختارات من القصة القصيرة عام 1978، كما نشرت لها جريدة الأسبوع الأدبي السورية في عددها 451 الصادر في نوفمبر 2008 ملفًا نصيًّا خاصًّا حوى ثلاثة وعشرين نصًّا ما بين القصة وسرد شرائح قصيرة من السيرة، بعض هذه النصوص يتسم بالقصر والجدة، ويحمل في طياته رؤية إما اجتماعية أو ذاتية أو سياسية، وتعد مجموعة "رحيل المرافئ القديمة" أهم مجموعات غادة السمان القصصية، حيث تتضمن ست قصص قصيرة كتبت على إثر الهزيمة العربية عام 1967، عبّرت فيها الكاتبة عن آرائها بشأن هزيمة العرب عام 1967، والشرخ الذى أحدثته هذه الهزيمة في جسد الأمة العربية، كذلك تفاعلت الكاتبة مع الثورة الفلسطينية والجزائرية والنشاط الذى أحدثته المقاومة من خلال بعض قصص المجموعة، إلى جانب أحداث بارزة في العالم العربي آنئذ. وفى كتابه "الحرية في أدب المرأة" يقول عفيف فراج عن أدب غادة السمان القصصي: "إن الأصالة الفنية التي تقف وراء استمرارية غادة السمان هي أهم ما يميزها على جيلها من الكاتبات. فحين نجد أن الكاتبات ليلى بعلبكي، كوليت خورى، وليلى عسيران بدأن بأعمال قصصية وقفن معها على ذروة، ليتدحرجن مع قصتهن الثانية إلى السفح، نجد أن غادة السمان تبدأ من السفح بمجموعة "لا بحر في بيروت" لتصل بمجموعتها القصصية "ليل الغرباء" إلى ذروة فنية تتجاوزها إلى ذروة أعلى بمجموعتها القصصية الأخيرة "رحيل المرافئ القديمة". الحرية في أدب المرأة، عفيف فراج، دار الفارابي، بيروت، 1975 ص 67)، وقد شرعت غادة السمان في أول مجموعاتها القصصية وهى مجموعة "عيناك قدري" التي أهدتها إلى والدها، في تأصيل جوانب عالم المرأة من خلال الحياة والحب والعاطفة المستثارة في نسيج قصص هذه المجموعة، وقد اختارت القصة الأولى كعنوان لقصص المجموعة، وفي هذه القصة تعبر الكاتبة عن مشاعرها بوصفها امرأة كبلها الحب، وسبب لها أزمات نفسية عديدة، وهى كما تصور في نهاية النص حين تقول: "عيناك قدري، لا أستطيع أن أهرب منهما، وأنا أرسمهما في كل مكان، وأرى الأشياء من خلالها". "عيناك قدري.. لا أحد يهرب من قدره يا عماد" نص "عيناك قدري"، المجموعة، غادة السمان، منشورات غادة السمان، بيروت، الطبعة الخامسة، 1979 ص 20).

غادة السمان

قصة "يدعّون: الشمس تشرق من إسرائيل!!"، تعد من الأعمال القصصية ذات النزعة السياسية، وهو نص يضاف إلى محور إبداع المقاومة مع العدو الصهيوني في كتابات المرأة

كانت غادة السمان مفاجأة شديدة الرهافة لجيلها من الكتّاب والكاتبات، حيث قدمت نموذجًا جديدًا من الإبداعي المعبّر عن الحياة العربية المحافظة وجديدها الإبداعي في الفكر المنظم

القصة بفنيتها العالية ولغتها الكاشفة وحواريتها الدامغة، تجسد مدى تقصير وسائل الإعلام العربية في التعريف بالعرب، بلادهم وثقافتهم، بينما الآخر يهتم بهذه الناحية اهتمامًا كبيرًا، وهو ما رفدته الكاتبة في قصتها، التي تعيد إلى الأذهان بداياتها مع القصة القصيرة في أوائل السبعينيات، حين أصلت رؤيتها الذاتية في تجسيد هذا الواقع المعيش

وفى مجموعتها الثانية "لا بحر في بيروت" جسَّدت غادة السمان واقع الحياة من خلال شخصيات بعضها نمطى وبعضها غير مألوف تعبّر فيها عن العلاقات السائدة بين الرجل والمرأة خاصة الموضوعات المتسمة بنزعة الحب والخيانة. حتى إنها تتساءل في قصة "لعنة اللحم الأسمر" عما إذا كان هناك رجل يستطيع أن يفهم مشاعر المرأة، بطريقة مباشرة وليس عن طريق العلاقات الجسدية، وهو ما أجابت عليه بعد ذلك في قصة "غجرية بلا مرفأ". أما المجموعة الثالثة وهى مجموعة "ليل الغرباء"، فهي مجموعة تشي بعنوانها حيث تجسد المتناقضات الممتلئ بها طبائع المجتمع ومفارقات الحياة بقضاياها المربكة. ولنأخذ مثلا من هذه المجموعة قصة "فزاع طيور آخر"، القصة تحكى عن قاضي يؤمن بالصدفة البحتة فقط، ولا يبحث في أمور العدالة في القضايا التي ينظرها من جوانبها الموضوعية، يعتقد أن الصدفة هي سيدة العالم والحاكمة فيه، لذا لم يكن يصدر الأحكام انطلاقًا من الحيثيات الموضوعية للقضايا، إنما كان يختلي بنفسه ليلقي بقطعة نقود في الهواء، على إحدى وجهيها كتب "مذنب"، وعلى الوجه الآخر "برئ". والصدفة فقط هي التي تقرر مصير أي متهم. تكتشف زوجته سره وتخشى سطوة عذاباته معها، ثم تكتشف أيضًا بالصدفة أنها عاقر وأن خادمتها حامل في الشهر التاسع، والقطة في البيت وضعت سبعة قطط دفعة واحدة... تتبنى الزوجة أفكار زوجها جراء المعايشة الفكرية والوجدانية، فتلقي بالقطط من النافذة، وحين يحين مخاض الولادة بالخادمة، تقرر: هل تتركها تموت أم تحضر لها الطبيب؟ وتجد نفسها وقد فهمت للمرة الأولى وجهة نظر زوجها، وها هي تمسك القطعة النقدية وترمى بها في الهواء، وتحكم الصدفة: لا طبيب. وبهدوء تترك الخادمة تموت وتغادر البيت لتذهب إلى لعب البريدج. القصة تجسد العدالة من وجهة نظر البشر الحاملين لطبيعة مستر جيكل ومستر هايد لستفينسون. الشر المسيطر على واقع الحياة هو الذى يقرر مصير البشر. هكذا كانت رؤية غادة السمان في قصة "فزاع طيور آخر". وهو ما ينسحب أيضًا على بعض قصص المجموعة. أما مجموعة "رحيل المرافئ القديمة" فقد رصدت غادة السمان فيها الهزيمة بكل سقطاتها وزلاتها، رصدت فعل الهزيمة كاملاً، كما رأته وكما عايشته في أزقة وشوارع بيروت، وهو ما انسحب بشدة وبقوة على أزقة وشوارع باقي المدن العربية الأخرى ": ... الأرصفة مرشوشة بالناس، يتنكبون الترانزستور كالبنادق المكسورة، ويمشون بتثاقل الجنود المهزومين، ينصتون إلى الأخبار وإلى أغاني أم كلثوم وبين فئة وأخرى تفوح رائحة الحشيش الذى حشوا به لفافاتهم.. الشعب الفقير الحزين المتعب، يترنح فوق الأرصفة وخلف نارجيلات المقاهي، كمن أصابته ضربة في رأسه لما يصح منها بعد.. وبعد لحظات بدأت أشعر أن رائحة العفونة التي كنت أظنها تنبعث من البحر بفعل حرارة الجو قد تكون رائحتنا نحن.. نحن الناس المهزومون المقتولون دون أن ندرى. الراكضون بجثثنا في شوارع العواصم العربية والمدن والقرى..." (الحب والرعب في زمن الهزيمة، غادة السمان بلا أجنحة، د . غالى شكري، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1990 ص 67)، كان واقع الهزيمة هو الحاضر في هذه المجموعة، عبّرت عنه الكاتبة بثلاث نصوص جسدن الفعل الكبير الحادث على المستوى النفسي والقومي.

وفى قصتها "يدعّون: الشمس تشرق من إسرائيل" وهى القصة موضوع القراءة، تسرد الراوية وهي فتاة سورية صغيرة في رحلة مع مجموعة من الطالبات والطلاب من جنسيات مختلفة اجتمعوا في إحدى بيوت الطالبات في كوخ على تل من الثلج بمدينة زيورخ بسويسرا. كان الهدف من الرحلة هو مراوحة النفس والسياحة والتعرف على العالم مع هذه الكوكبة الفاتنة من الأصدقاء. هاجس الراوية يتحلق حول المتعة بكافة مظاهر الطبيعة الخلابة في هذه المنطقة والاندماج مع هذه الصحبة من الأصدقاء والابتعاد عن تأزمات واقع، كما كان الهدف منها أيضًا نوع خاص من سياحة الشباب في هذه المنطقة الخلابة من العالم، تشير الكاتبة في صدر قصتها وهى تقول على لسان الرواية الساردة وهى من بلدة في سوريا تقول الفتاة في تفاؤلها المشرق ": منذ يوم رحلتي الأول قررت: لن تقع عيناي إلا على الجميل والمبهج.. سأتحدث عن شروق الشمس وأترك لسواي مشاهدة الغروب.. سأرسم نصف الكأس الملآن بالماء وأتجنب الحديث عن النصف الباقي الفارغ.. ففي وطني العربي يعتب الجميع على كتّاب جيلنا: «لماذا كل هذا التشاؤم؟!.. ضياعكم مستورد! حزنكم غير أصيل! بلادنا لم تتعرض لويلات الحروب العالمية! نحن بخير.. نريد أدبًا أصيلاً.. نريد كلمات بيضاء فعلاً، لا من باب التسمية بأسماء الأضداد». لكنها عندما سمعت كلمة "إسرائيل" في حوار مع إحدى الصديقات بطريق الصدفة البحتة، فكأنما هو بركان انفجر فجأة. بدأ الحوار مع فتاة إنجليزية مشربة ببياض الثلج تدعى باميلا: "سألتني بفضول وهي تتأمل شعري الأسود وبشرتي الداكنة وارتعادي المستمر من برد الجو:

- وأنت، من أين جئت؟
- من بلاد دافئة دائمًا.. مشمسة وجميلة..
- ما اسمها؟
- سورية.

وقلبت شفتيها بجهل وسألت: أين؟

- لبنان.. سورية.. ألم تسمعي بهما؟..
- قالت: لا!..
- على شاطئ البحر المتوسط.. شواطئ دافئة، مراعيها قلما تعرف الثلج.

أجابت وقد أضاءت عيناها: تعنى إسرائيل!!..

تحكى الفتاة الإنجليزية عن تجربة لها في رحلة سياحية مماثلة إلى إسرائيل مع بعض الأصدقاء رافقها فيها صديق مجري، وكانت بأجور شبه رمزية تشارك إسرائيل في تمويلها. تعرفت الفتاة الإنجليزية في هذه الزيارة على كل شيء في إسرائيل، عن يافا وحيفا وأديبهم عجنون الذى سبق وأن فاز بجائزة نوبل بعد أن أهدوها كتبه. هي لا تعرف شيئًا عن الأديب الإنجليزي العظيم ريتشاردسون مواطنها الأصيل، ولا عن الكاتب الفلسطيني الكبير غسان كنفاني، ولا عن حنا مينه، وغادة السمان. وتعود الراوية مع أخيها إلى مكان المبيت لتشاهد مسلسلاً تليفزيونيًّا عن أرسين لوبين، وهو يواجه أعداءه (إنهم من العرب). عشرات الأحداث ترويها الراوية منهم أسماء أبطال عرب يتحدثون عنهم كأنهم قراصنة. ": إن سوء الفهم لبلادنا عار سوف يلطخ التاريخ الإنساني أعوامًا طويلة.. وإذا كانت ألمانيا الحديثة تدفع ثمن اضطهاد النازية لليهود حتى اليوم (للأسف شحنات من الأسلحة لإسرائيل) فلا أدرى كيف يدفع العالم الحر ثم اضطهاده المقصود وغير المقصود للعرب، لقد بدأ جيلهم يصدق كذبة إسرائيل الكبرى وجيلنا الجديد لم يع بعد معنى هذه الصدمة وتأثيرها حتى على أصغر زوايا حياته وتصرفاته..". (قصة "يدعّون أن الشمس تشرق من إسرائيل، غادة السمان، الموقف الأدبي، دمشق، ع 451، نوفمبر 2008 ص264) تسرد الراوية في نهاية النص اعتذار أحد الأصدقاء الإنجليز عن سوء الفهم لما تذيعه وسائل الأعلام في أوروبا، لكنها هكذا دائمًا في هذا الأعلام المضل والمضلل تتناول شعوب أخرى عدة بنفس الكيفية الصينيين واليابانيين والجنس الأصفر كله تتعامل معه إعلاميًّا كما تتعامل مع العرب بهذا الأسلوب. لكنه أغفل شيئًا ذكرته له، وترد عليه الساردة: لماذا لا يذيعون قصة تاجر البندقية وهى من روائع شكسبير ومضمونها هو الحقيقة الكاملة عن هذا الكيان المزعوم "إسرائيل".

القصة بفنيتها العالية ولغتها الكاشفة وحواريتها الدامغة، تجسد مدى تقصير وسائل الإعلام العربية في التعريف بالعرب، بلادهم وثقافتهم، بينما الآخر يهتم بهذه الناحية اهتمامًا كبيرًا، وهو ما رفدته الكاتبة في قصتها، التي تعيد إلى الأذهان بداياتها مع القصة القصيرة في أوائل السبعينيات حين أصلت رؤيتها الذاتية في تجسيد هذا الواقع المعيش، فقد كانت القصة القصيرة عند غادة السمان حالة من حالات تجسيد بؤرة من بؤر أزمات الواقع المعيش المعاصر في تفاعله مع أزمة الإنسان العربي في مراحل التحول المختلفة، كثيرًا ما نجد في هذا الإبداع قضايا إنسانية وثقافية وسياسية تعكف الكاتبة على تجسيده والتعبير عنه بامتياز واقتدار.

المشي خلف حارس المعبد

محمد الكامل بن زيد
بسكرة - الجزائر

انتظَروا مليًّا ساعة الحسم بقلوب واجفة..مثلما توقع الجميع..فرحلته الأخيرة خارج المعبد لن تدوم أكثر من المعهود..حدس غريب ظلّ يساورهم مدة غيابه حتى شل تفكيرهم..حدس يفضي إلى أن شيئًا مريبًا.. رهيبًا.. سيزلزلهم.. وقد كانوا على حق.. يومان لا أكثر ولا أقل.. عاد مسرعًا آمرًا أهله أن يدثروه أن يزملوه.. بهتوا من حالته المرعبة ولم يقدروا على الحديث معه.. فقد ظل طوال الليل يهتف ويهاتف أشياء فوق التصور.. فهذا الذي ظل يحرس معبدهم منذ سنين وسنين حتى أحيطت به الهالة العظيمة.. وكاد أن يدرك النبوءة.. عاد مسرعًا من سفره.. زاده الأخير الارتجاف والهذيان.. وبين أحضان الأحبة فيها الكثير من السراب الذي لا يسد الظمأ ولا يخفي الحقيقة الثكلى المتجلية للعيان.. الصغير قبل الكبير.. الأعمى قبل البصير..

حركات مريبة أوجس الجميع منها خيفة.. بدأت تتحرك في مختلف الاتجاهات الممكنة وغير الممكنة.. سقط القناع عن القناع.. وانتفضت الأحلام المؤجلة بعد أن سئمت الصبر والانتظار.. فقد أوهنها الظل الغائر بين ثنايا شقوق الجدران..أرادت ركوب أمواج البحر العاتية المحيطة بالمعبد..إصرارها شديد وعنيف لم يخطر على بال أحد ولم يكن قط في الحسبان..إذ تجرأت على قرع الأجراس المعلقة فوق الأبواب الموصدة مع تعاظم أصواتها..حتى هو حين أفاق من غيبوبته وحملق في وجوههم..وجوه قديمة..رثة..زاغت عيناه ولم ينبس ببنت شفة، بل تسمر في مكانه، وألقى بنظره إلى الأفق البعيد.. هناك إلى سقف المعبد، حيث المنارة الشاهقة..تلك المنارة العتيدة؟ ! تساءل في قرارة نفسه.. هل من الممكن أنه أخطأ التقدير؟!..وأن ضوءها كان يخدعه طوال هذه السنين؟!..

الأسئلة الموجعة أخذت تعنف هواجسه بكثير من القسوة المبالغ فيها حتى أوشكت أن تجعله يخمن كيف يلف حبلاً حول عنقه..

لم يجد بُدًّا من الصعود إليها.. ولم يجد بدًّا من أن يضرب بقبضة يده على زجاجها..إذ تبين له أن المصباح عتيد وعتيد جدًّا.. وكيف أنه لم ينتبه أو بالأحرى كيف لم يخبره من ولاه أمرها بحقيقتها..سأل عنه فجاءه الرد سريعًا.. مات منتحرًا.. ربما أدرك ما أدركه فلم يقدر على البوح فآثر الكتمان الأبدي.. آثر الرحيل بطريقته.. مات منذ عشرين عامًا.. عشرون عامًا.. الأيام تمضي كلمح البصر.. لم يفقه كيف برق في ذهنه أن يتلمس كفَّ يده وخده وشعره..التجاعيد قطعت حبل الوصال بينه وبين الشعر الأبيض..حتى المرآة..أيقن أنها فعلت فعلتها..ظلت تصور له كل صباح عالمًا غارقًا في الأوهام..

أعاد البصر مرتين حيث السماء السابعة..ما تبقى له يعيقه عن النزول مرة أخرى إلى الأسفل..إنه يرفض ابتلاع الحقيقة المُرَّة..هل انتهى الحلم؟!..هل آن الأوان لأن يكون للمعبد حارس آخر..غيره..مستحيل لا يمكن أن يحدث هذا..أما الأحلام المؤجلة التي يراها الجميع سقمًا وسخطًا لا مثيل له يعلوها..أراها أنا سحابة صيف عابرة لا أكثر ولا أقل.. فهي لا تفقه شيئًا ولا يمكن لها أن تدركه..الموقف أكبر مما تتصور..فالسماء لم تعد هي السماء التي ندعوها..والأرض ما عادت هي الأرض التي نرجوها..والبحر ما عاد ذاك البحر الذي نحلم به..بحر انقسم إلى بحرين..هذا بحر ميت وهذا بحر أسود..انتابته هلوسة مريعة..عصفت به..تمنى لو أن الوقت توقف منذ عشرين عامًا.. إنه يشعر بغثيان.. يتكئ على شقوق الجدران.. حرارة متوهجة تتغلغل داخل صدره..يتحسسها..ألم قاتل ينخره..وصرة قاتمة تأتيه من الأسفل حيث الأحلام المؤجلة.. بالكاد تبينها.. شيئًا فشيئًا بدأت تتضح، ومعها تزداد عيناه جحوظًا.. عجوز في أرذل العمر تتصدر الجموع حاملة بندقية قديمة..رثة.. تبكي بفزع وحرقة..لم يستطع جسده أن يقاوم أكثر.. بدأ يتمايل كريشة في مهب الريح أو كشمعة بدأت تأكل فتيلها..ومعه شيدت العتمة أسوارها..مستجدية:

- أنت يا أمي..أنت